

عاهدوا وما بدلو

عهود موثقة بالكتاب والسنة
لا مناص لسالك طريق الجهاد من العلم والعمل بها

الجزء الثالث

قَالَ تَعَالَى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ
مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ
الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (٢٤) (الأحزاب).

العهد الخامس: اتقاء الخلل

قال الله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَوُا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٤٧) لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿٤٨﴾ (التوبة).

قال الطبري: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾، يطلبون لكم ما تفتنون به عن مخرجكم في مغزاكم بتشبيطهم إياكم عنه... قال ابن زيد في قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾، قال: هؤلاء المنافقون في غزوة تبوك يسلي الله عنه نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فقال: وما يحزنكم؟ ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾، يقولون: قد جُمع لكم وفُعل وفُعل، يخذلونكم^(١).

وقال الرازي: (واعلم أنَّ حاصل الكلام هو أنهم لو خرجوا فيهم ما زادوهم إلا خبالاً، والخبال هو الإفساد الذي يوجب اختلاف الرأي، وهو من أعظم الأمور التي يجب الاحتراز عنها في الحروب؛ لأنَّ عند حصول الاختلاف في الرأي يحصل الانهزام والانكسار على أسهل الوجوه)^(٢).

(١) جامع البيان ١٠/١٤٥.

(٢) مفاتيح الغيب ١٦/٦٦.

الوصايا

الوصية الأولى: لا ندم على تخلف الخوالف

فمن رغب عن الجهاد فذلك لرغبة الله عنه، ومن استغنى عن الله فالله غني عنه، وقد أغنى الله عنه، فالظاهر لا يندم على عدم تعلق النجاسة بشيابه، أليس المنافقون رجسًا؟! حتى لو انسحب من صفّ المجاهدين الثلث، والثلث كثير، وانسحبوا قبل المواجهة بلحظات، فذلك لأنّ الله أراد أن يخفف عن المجاهدين جميع الأثقال، ويكفيهم شر الأشرار، ولأنّ الله أراد أن يكشف المنافقين حتى وإن كانوا الثلث، بل لو تساقط الأكثرية وبقيت القلة القليلة، فما ذلك إلا لأنّ الله أراد أن ينزل نصره، ونصره لا ينزل على صفّ مشوب بهذه الطريقة، ولأنه أراد أن لا يشركه أحد في نسبة النصر لنفسه، أو يكون لأحد منّة على دينه، أو على أوليائه.

إنّ المجاهد وهو يقف أمام العدو لابد أن يكون حريصًا على كل فرد من الأفراد المجاهدين، وكم يعزُّ عليه أن يسقط واحدٌ من الآلاف التي تنتمي لفصيله، أو لأيّ فصيل جهادي صادق... فكيف إذا كان أكثر من واحد، وكيف إذا استطاع العدو توظيف هؤلاء في صفّ منافقيه؟!

وفي هذه الكلمة أعظم عزاء للمؤمنين الصادقين عن تخلف المتخلفين، وتساقط المتساقطين: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾، ومن جهة أخرى فإنّ العبرة كما هو واضح من الآية بالمخلصين في الصفوف أو بالصفوف المخلصة الخالصة... والعبرة بتصفية ذلك الفصيل وتلك الجماعة الجهادية من المنافقين، وليست العبرة بالكثرة كيفما اتفق!

الوصية الثانية: لا قليل من النفاق

يقول الله جلّ في علاه: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ﴾.

يقول البقاعي: (أي: وإن كانوا قليلاً مغمورين بجماعتكم) ^(١).

فمهما كانت أعدادهم قليلة فأخطارهم عظيمة!

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فمن النفاق ما هو أكبر، يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار، كنفاق عبدالله بن أبي وغيره، بأن يُظهر تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم أو جحود بعض ما جاء به أو بغضه، أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه، أو المسرة بانخفاض دينه، أو المساءة بظهور دينه، ونحو ذلك مما لا يكون صاحبه إلا عدوًّا لله ورسوله صلى الله عليه وسلم...).

وهذا القدر كان موجودًا في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما زال بعده، بل هو بعده أكثر منه على عهده، لكون موجبات الإيمان على عهده أقوى، فإذا كانت مع قوتها كان النفاق موجودًا، فوجوده فيما دون ذلك أولى...

وكما أنه كان يعلم بعض المنافقين، ولا يعلم بعضهم، كما بينه قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾، كذلك خلفاؤه بعده وورثته قد يعلمون بعض المنافقين ولا يعلمون بعضهم...

وفي المنتسبين إلى الإسلام من عامة الطوائف منافقون كثيرون في الخاصة والعامة، ويسمون الزنادقة^(١).

إنَّ أصعب ما على المنافق وعلى شياطينه أن يُكشف أمرهم فيطردوا من الصف الجهادي، أو يُتخلص منهم... إنها ضربة في الصميم للأعداء، ذلك لأنَّ خطط العدو الأكبر مبنية في الأساس على تلقي المعلومات من هؤلاء المندسين، فعادة ما يضربون ضربتهم الإستراتيجية بناءً على معلوماتهم السابقة التي حصلوا عليها من مصادرهم النفاقية، كما تأتي ضربتهم الفورية للمجاهدين بناءً على المعلومات من منافقيهم وسط الصف.

إذن فكم لدى العدو من الاستعداد ليدفع في مقابل المنافق في داخل صفنا؟!

إنهم يدفعون إذا اقتضى الأمر ما يساوي بقاءهم، ما يساوي انتصارهم، ما يساوي بلادنا، بل ما يساوي بلادهم ومستقبلهم... فلا تستكثروا المبالغ التي دفعها الأعداء للمنافقين من قبل حتى جاء وقت الغزو الصليبي، وهم اليوم أشدَّ حرصًا عليهم، وعلى دفع الأكثر لهم؛ لأنَّ مصيرهم أصبح أخطر مما كان، وما هذه المليارات التي يدفعونها إلا ثمنًا لذلك على مختلف مستويات وطبقات المنافقين.

فإنه جلّ جلاله - وهو العليم الخبير - حين يوضح للمؤمنين المكاسب المتحققة بالسلامة من عدم وجود المنافقين معهم فإنه يقول: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾.

قال الطبري: (لم يزيدوكم بخروجهم فيكم إلا فسادًا وضرًا، ولذلك ثبطهم عن الخروج معكم)^(١). وأنتم أيها المجاهدون: تذكرون جيدًا كم وقرتم من المكاسب لما اكتشفتم منافقًا كان بينكم؟ وكم حقنتم من الدماء والأرواح حين أخرجتم الخبال والفساد من داخل أعضائكم؟ وكم نجحت لكم خطط جهادية هجومية ودفاعية كانت تؤاد في كل مرة من قبل حين كُفيتهم هؤلاء فأخرجتموهم؟

أيها المجاهدون: بالله عليكم، لمن وجّه الله تعالى الخطاب في قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾؟ ألم يوجّه لأفضل أناس، أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! هذا وهم أكثر المجتمعات طهارة، وأنقى الأصحاب، وأبعدهم عن قبول الفتنة والشبهة، ومع هذا لا يمكن أن يسلموا من تأثيراتهم النفاقية لو خرجوا فيهم!

والمقتضى العملي لكم أيها الفصائل المجاهدة: أن تضاعفوا الجهد؛ لئلا يخرج معكم المنافقون؛ لأنهم إن خرجوا أوقعوا الفتنة فيكم والخبال! فهذه هي غاية خروجهم، وهذا هو هدفهم، ووسيلتهم في ذلك التشكيك والوقية، باستغلال الفرص لذلك بانتهاز أوقات المحادثة مع المجاهدين في الطريق، وفي أماكن النزول، والراحات، والخلوات، مستغلين لهذا الهدف كل كلمة، وكل عمل، وكل خلاف... حاملين أحسن الأعمال والأقوال على أسوأ الظنون من خلال أسوأ التفسيرات! مشككين في أعظم رجالكم، وفي أصعب قراراتهم بطريقة الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس. فعليكم أن تضاعفوا الحيلة والحذر ابتداءً.

الوصية الثالثة: الوقاية من إيضاعهم

قال تعالى: ﴿وَلَا تَوَضَّعُوا خِلَالَكُمْ﴾.

يقول ابن كثير: (أي: لأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة)^(٢).

(١) جامع البيان ١٠/١٤٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/١٦٠.

وقال البغوي: ﴿وَلَا وَضَعُوا﴾، أسرعوا، ﴿خَلَّكُمُ﴾، وسطكم، بإيقاع العداوة والبغضاء بينكم بالنميمة ونقل الحديث من البعض إلى البعض^(١).

أيها المجاهدون: تأملوا الآيات، ثم تأملوا واقعكم، وسترون أنَّ الوصية الأعظم هنا هي رصُ الصف وسد الخلل.

فالمنهجية المتبعة لدى المنافقين الأولين هي الإسراع بنقل الخبر بمجرد تحصيله، فأنت تعجب للجهد الذي يبذلونه حتى تكاد تقسم بأنَّ هذا الجهد المتواصل والعمل الدؤوب لا يقوم به إلا مخلص محتسب غيور على جهاده، والغاية في إيضاع المنافقين منصوص عليها وهي: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾. فإذا نظرنا في الواقع وجدنا إيضاع المنافقين ليس مثله إيضاع، فسرعتهم في نقل الخبر تناسب عصر السرعة، ففي الوقت الذي كانت الاتصالات العراقية تعاني التخلف التقني نسبة للعدو كان آحاد المنافقين يحملون أجهزة إرسال تتميز بقوة البث والاستقبال كما تتميز بالإسراع.

يقول ابن عاشور: (في ذكر ﴿خَلَّكُمُ﴾، ما يصلح لتشبيهه استقراءهم الجماعات والأفراد بتغلغل الرواحل في خلال الطرق والشعاب، والخلال جمع خلل بالتحريك، وهو الفرجة بين شيئين، واستعير هنا بمعنى بينكم تشبيهاً لجماعات الجيش بالأجزاء المتفرقة)^(٢).

إيجاد الخلل مطلبهم ومطمعهم في صف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ذلك الصف المرصوص، بل إنَّ الله جلَّ جلاله يقرر أنهم لو خرجوا معهم لنجحوا في إحداث هذا الخلل والدخول منه، فيقول: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وَضَعُوا خَلْلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾، لكنَّ الله عزَّ وجلَّ عصم ذلك الصف وطهرهم من حيث لم يحتسبوا، بل من حيث كانوا يكرهون، إذ كانوا يكرهون نقصان عددهم، وما كان ذاك إلا فضلاً من الله عليهم، ثم لطهارة قلوبهم وبواطنهم التي أثمرت جنسها بطهارة صفهم، وخروج المفسدين من بينهم، فمن يطهر صفكم - أيها المجاهدون العراقيون - إذا لم يطهرها الله؟! والله لا يطهرها حتى تتطهروا، وتطهروا بواطنكم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ

(١) معالم التنزيل ٢/٢٩٨.

(٢) التحرير والتنوير ١٠/١١٢.

الشَّجَرَةَ فَلَمَّ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ (الف - تح). إذن فالرضى وإنزال السكينة كان لأجل أنه علم ما في قلوبهم سبحانه.

فهذا يجعلنا أشد رقابة على قلوبنا من رقابتنا على صفوفنا، ويجعلنا أشد رقابة على صفوفنا في هذا الوقت بعد هذا العلم من أيّ وقت مضى، بينما الشيطان يريد أن نهمّل هذه الحراسة، حراسة النفوس وحراسة الصفوف؛ ليتفرغ هو وصحبه لإحداث الخلل وتوسيعه، قبل تمزيق الصف وتقطيعه!

أيها المجاهدون: لا يمكنكم أن تصلوا إلى وصف "الصف المرصوص" ما لم يتهم الإنسان نفسه قبل غيره، ويحاسب فضيله، قبل محاسبته الفضيل الجهادي الآخر.

لقد أصبح العدو ومنافقوه يشأمون النفوس، فيعرفون ما بين هذا الفضيل الجهادي وذاك، وما آخذ هذا على ذاك، وماذا يثير هؤلاء على هؤلاء، وما الفتيل الذي يوقد منه بين هؤلاء وهؤلاء، وكيف ينسفون عقود الوحدة أو التعاون ما بين هؤلاء وهؤلاء... يعرفونه من خلال الكلمة، من خلال الإشارة، من خلال السكوت أحياناً، والله عليم خبير!

وأني لنا أن ننكر هذا الخلاف بين فصائلنا، والجميع أصبح يتحدث فيه من خارج صفوفنا الجهادية.

لا يكفي أن نقول: نحن ملتزمون بعدم نقد بعضنا البعض بالباطل أو لغير ضرورة شرعية، وترك الغيبة والنميمة فيما بيننا، فهل هذا هو الذي يحبه الله فحسب لمثل من في حالتنا؟! أليس هذا المستوى هو ما يجب أن يلتزمه عامة المسلمين تجاه بعضهم البعض؟!

أما الذين يعدون "قادة وقدوة"، ويريدون أن يحملوا الراية، ويتقدموا المسلمين نحو الفتح المبين، فعليهم أن يكونوا مستعدين للفتنة قبل ورودها، متوقعين لها كما يتوقعون هجمة العدو على صفوفهم، رادين لها بأقوى مما جاءت به.

فإذا كان من مصلحة الجهاد أن نتوزع على أرض الواقع إلى مجاميع جهادية، فليس من مصلحة الجهاد أن يكون تعدد تلك المجاميع ثغرة يتخلل منها المنافقون!

وإنَّ الخطورة علينا كبيرة من المنافقين؛ لأنَّ قابلية الافتراق عند الكثير منا - وللأسف - كبيرة بسبب الضعف التربوي والإيماني.

فإن لم يكن الصف المرصوص على أرض الواقع فليكن صفًا مرصوصًا في المنهج، في الفتوى، في القرار، في التخطيط، في الوضوح، في الصدق... فما منا من أحدٍ إلا وهو ينادي بترك الخلاف، ويلقي دروسًا في ذلك، ويحفظ من الأدلة ما يحفظ، لكن ما أكثر من يخالف ذلك؟

فما إن تومض له شرارة خلاف هائمة في الفضاء إلا ويتلقاها بشيابه؛ ليشعل منها حريقًا في صدره، وحريقًا في صدر فصيله المجاهد وفصائل الآخرين الجهادية، ولو ترك الشرارة وشأنها لذهبت في الفضاء كما يذهب الشر الذي ترمي به تنانير الدنيا، فالفضاء يستوعب ذلك، بل يستوعب الشهب والنيازك، أما الصدور فإنَّ الحرارة التي فيها تكفيها!

ووالله ما رأيت مثل بني قومي في تنحية التكليف الشرعي لهم عن أنفسهم، وما رأيت أسرع منهم في إصاقه بالآخرين.

إخواني المجاهدين: اقرؤا كلام الله تعالى هذا مرة بعد مرة، واجعلوا واقعكم تحت نوره لتروا الحقيقة واضحة ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خَلْقَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ﴾ (التوبة).

الوصية الرابعة: لا تهاون مع سمّاع

قال الطبري: (وأما قوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾، فإنَّ أهل التأويل اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم: معنى ذلك: وفيكم سمّاعون لحديثكم لهم يؤدونه إليهم، عيون لهم عليكم... وقال آخرون: بل معنى ذلك: وفيكم من يسمع كلامهم ويطيع لهم... وأولى التأويلين عندي في ذلك بالصواب، تأويل من قال: معناه وفيكم سمّاعون لحديثكم لهم، يبلغونه عنكم، عيونٌ لهم؛ لأنَّ الأغلب من كلام العرب في قولهم سمّاع، وصف من وصف به أنّه سمّاع للكلام، كما قال الله جلَّ ثناؤه في غير موضعٍ من كتابه: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾، واصفًا بذلك قومًا بسماع الكذب من الحديث، وأما إذا وصفوا الرجل بسماع كلام الرجل وأمره ونهيهِ وقبوله منه وانتهائه إليه، فإنما تصفه بأنه له سامع ومطيع، ولا تكاد تقول: هو له سمّاع مطيع^(١).

(١) جامع البيان ١٠/١٤٥-١٤٦.

وخالف شيخ الإسلام ابن تيمية ترجيح الطبري، فقال: (وليس هذا معنى الآيتين، وإنما المعنى فيكم من يسمع لهم، أي يستجيب لهم ويتبعهم)^(١).

وقال الثعالبي في تفسيره: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾، قال مجاهد وغيره: معناه جواسيس يسمعون الأخبار وينقلونها إليهم. وقال الجمهور: معناه وفيكم مطيعون سامعون لهم)^(٢).

وقال ابن كثير: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾، أي: مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم، يستنصحوهم، وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي هذا إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير. وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾، أي: عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم. وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم، بل هذا عام في جميع الأحوال. والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق)^(٣).

وقال الخازن: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾، فإن قلت: كيف يجوز أن يكون في المؤمنين المخلصين من يسمع ويطيع للمنافقين؟ قلت: يحتمل أن يكون بعض المؤمنين لهم أقارب من كبار المنافقين ورؤسائهم، فإذا قالوا قولاً ربما أثر ذلك القول في قلوب ضعفة المؤمنين في بعض الأحوال)^(٤).

وقال ابن عاشور: ﴿وَفِيكُمْ﴾، أي: في جماعة المسلمين، أو من بين المسلمين، ﴿سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾، فيجوز أن يكون هؤلاء السَّمَّاعُونَ مسلمين يُصدِّقون ما يسمعون من المنافقين، ويجوز أن يكون السَّمَّاعُونَ منافقين مبثوثين بين المسلمين، وهذه الجملة اعتراضٌ للتنبيه على أن بغيهم الفتنة أشد خطراً على المسلمين؛ لأنَّ في المسلمين فريقاً تنطلي عليهم حيلهم، وهؤلاء هم سذج المسلمين الذين يعجبون من أخبارهم ويتأثرون، ولا يبلغون إلى تمييز التمويهات والمكائد عن الصدق والحق. وجيء بحرف (في) من قوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾، الدال على الظرفية دون حرف (من)، فلم يقل: ومنكم سَمَّاعُونَ لهم، أو ومنهم سَمَّاعُونَ؛ لئلا يتوهم تخصيص السَّمَّاعِينَ بجماعة من أحد الفريقين دون الآخر؛ لأنَّ المقصود أنَّ

(١) مجموع الفتاوى ١٩٤/٢٨.

(٢) الجواهر الحسان في تفسير القرآن ١٨٥/٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم ١٦٠/٤.

(٤) لباب التأويل في معاني التنزيل ٢٣٤/٢.

السَّمَّاعِينَ لَهُمْ فَرِيقَانِ، فَرِيقٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَفَرِيقٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ أَنْفُسُهُمْ، مَبْثُوثُونَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ لِإِلْقَاءِ الْأَرَاخِيفِ وَالْفِتْنَةِ^(١).

إِذَا دَقَّقْتَ النَّظَرَ فِي كَلِمَاتِ آيَةِ تَجَدُّ أَنَّ ﴿سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ مطلقة من غير قيد قصد الإضرار والإفساد، بينما الذي ورد في المنافقين الأصليين قوله تعالى: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾، فهؤلاء الـ ﴿سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾، منهم من ينقل الخبر بقصد الإضرار، ومنهم من ينقله كعادة له في النقل، وعدم قدرة على كتمان الأسرار، ومنهم من ينقله لولع بالسبق في النقل، ومنهم من ينقله ثقة بهؤلاء وإحسان ظنٍّ بهم، وكل هؤلاء متوحدون في إيقاع الضرر الفعلي بالأمة والجهاد.

فتوجيه الآية ومقتضاها هنا هو الوقاية الفعلية الدائمة من أضرار هؤلاء وهؤلاء، ومن المقطوع به أن يوجد في الصف أمثال هؤلاء السَّمَّاعِينَ لَهُمْ حتى وإن تخلص الصف من المنافقين الأصليين.

فمع أَنَّ اللهَ جَلَّ جلاله بين أنه كره خروج المنافقين وأنه ثبطهم، إلا أنه قال للمؤمنين: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾، فوجود السَّمَّاعِينَ لِلْمُنَافِقِينَ حقيقة واقعية، لكنَّ إخبار الله عزَّ وجلَّ للمؤمنين بهذه الحقيقة إنما هو خطاب لكل مسلم أن لا يكون من هذا الصنف الخادم للمنافقين، وألا يكون مستغفلاً، فهؤلاء عيون للعيون، وجواسيس للجواسيس (وهذا على اختيار الطبري). وعلى المسلم في مقابل ذلك أن يشيع النصيحة لكل من يخشى أن يكون من هذا الصنف حماية للإسلام، ثم إِنَّ في الآية دعوة للمنصوح أن يقبل بهذا النصح ويشكر عليه؛ لأنَّ اللهَ جَلَّ جلاله قد نهي عنه، فمن انتهى عنه بعد ذلك فإنما اتبع أمر الله في نهيهِ، ومن لم يستجب وبقي سَمَّاعاً للمنافقين نقلاً لأخبار المؤمنين فعلى المؤمنين أن يبعدوه بالحسنى، حتى يتوب من سوء عادته، وحاله في هذا حال العائن الذي لا يتقصد الإيذاء لكنه يؤدي بغير قصد.

فلتذكر الفصائل الجهادية أياماً كانت تظن أن ليس فيها منافقون حتى إذا اكتشفوهم وتخلصوا منهم، حسبوا أَنَّ الصف قد تطهر من المنافقين، ومع هذا تكرر الأمر وتكرر... وإلى هذه اللحظة - والله أعلم - يوجد آخرون وآخرون، وبعد هؤلاء يوجد الـ ﴿سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾، ولذا لزم التطهير الذاتي والمستمر

الذي يجعل الصف الجهادي ينفي خبثه، وكلما قوي إيمان المجموعة الجهادية، كان نفيها لخبثها أسرع وأعظم.

أيها المجاهدون: يغفل كثيرٌ منكم حين يتصور النفاق محصورًا بشكل أشخاص، أو يتصور أنّ وسيلتهم تتمثل في إرسال جواسيس، أو وضع لاقطات أو نحو ذلك فحسب! إنّ صورتهم الأوسع فاعلية في المجتمع، وفي المجاهدين كذلك، هي هذه المحطات الفضائية التي لعبت دورًا كبيرًا في إضلال كثير من الناس.

الوصية الخامسة: ليست بأول مرة

يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ

اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (التوبة: ١٨)

قال الطبري: (لقد التمس هؤلاء المنافقون الفتنة لأصحابك، يا محمد، التمسوا صدهم عن دينهم، وحرصوا على ردهم إلى الكفر بالتخذيل عنه، كفعل عبدالله بن أبيّ بك وبأصحابك يوم أحد، حين انصرف عنك بمن تبعه من قومه، وذلك كان ابتغائهم ما ابتغوا الفتنة من قبل. ويعني بقوله ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، من قبل هذا، ﴿وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾، يقول: وأجالوا فيك وفي إبطال الدين الذي بعثك به الله الرأي بالتخذيل عنك، وإنكار ما تأتاهم به ورده عليك^(١)).

أيها المجاهدون: إنّ من أمسكتكم به مرة وهو يوقع الفتنة في صفوفكم فاعلموا أنّها ليست المرة الأولى في منهجه، وإن كانت الأولى في علمكم، فمن العادة أن يكون لمثل هذا سوابق في إلقاء الفتنة، إنهم ﴿ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾، نعم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، وليس سنة الله المعروفة أن يفضح المذنب من أول مرة، فالله يهمل ولا يهمل، والله يملئ للظالم، والله يستدرجه، ومن باب الحذر أن يُعامل من يمسك به المرة الأولى - كما يزعم - كأنه قديم من حيث الحكم العقدي، وإن لم نطبق عليه الحكم العملي في بعض الأحيان لصوارف شرعية تقدر بقدرها... حتى وإن تاب، وأثبت صدق توبته، فإنه لا

(١) جامع البيان ١٠/١٤٧.

يُولَّى، كما هو عمل الخلفاء مع أبطالٍ عظماء من أمثال طليحة بن خويلد الأسدي وغيره إذ كتب عمر (شاوروا طليحة في حربكم، ولا تولوه شيئاً) ^(١).

الوصية السادسة: لا مسامحة بتقليب الأمور

قال تعالى: ﴿وَكَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾، قال القرطبي: أي: لقد طلبوا الإفساد والخبال من قبل أن يظهر أمرهم وينزل الوحي بما أسروه وبما سيفعلونه ^(٢).

وقال البغوي: (أي: طلبوا صدَّ أصحابك عن الدين، وردهم إلى الكفر، وتحذيل الناس عنك قبل هذا اليوم، كفعل عبد الله بن أبيّ يوم أحد حين انصرف عنك بأصحابه) ^(٣).

وقال ابن كثير: (أي: لقد أعملوا فكرهم، وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماله مدة طويلة) ^(٤).

وقال الشوكاني: ﴿وَكَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾، دبوا لك الحيل والمكائد ^(٥).

فتقليبهم الأمور بقصد إيجاد فهم مقلوب للأمر غير الفهم المستقيم، أو السعي في إساءة تفسير، أو إساءة ظن، أو تلفيق تهمة، أو نحو ذلك، كما فعلوا في مواطن كثيرة، وليس آخرها تقليبهم لأمر تأخر أمّا عائشة رضي الله عنها عن الجيش حتى استخرجوا منها تهمة الإفك، من خلال الربط ما بين تأخر عائشة الطاهرة المطهرة، وتأخر صحابي شريف رضي الله عنهم أجمعين.

فالله جلّ جلاله حين ذكر منهجهم في إحداث الفتنة من خلال تقليب الأمور، فإنّ مقتضى هذا أن لا تسمحوا لهم بتقليب الأمور في تفسير تصرفات إخوانكم المجاهدين الآخرين، وأن تحملوا تصرفات إخوانكم على أحسن المحامل، تلتمسوا لهم الأعذار إذا ضاقت الأمور ما دام الأمر محتملاً.

(١) ذكره ابن عساکر في "تاریخ دمشق" ١٥٤/٢٥، وابن الجوزي في "المنتظم" ٢٨٢/٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٥٦/٨.

(٣) معالم التنزيل ٢٩٨/٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم ١٦٠/٤.

(٥) فتح القدير ٣٦٦/٢.

هنا تعجب من قوله تعالى: ﴿وَقَلِّبُوا لَكِ الْأُمُورَ﴾، فهم لا ييأسون في ردهم وصدهم مرة ومرة، ولا يرتدعون إذا ردَّ عليهم مرة ومرة... فهم مستمرون في تقليب الأمور رغم أنَّ الأمور لا تحتمل.

والأكثر دلالةً على كبير إصرارهم وبجاحتهم هو أنهم يقلبون الأمور حتى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو أعظم الناس فطنة، وهو الذي يُصَبِّحُه الوحي ويمسيه لقوله سبحانه: ﴿وَقَلِّبُوا لَكِ الْأُمُورَ...﴾؛ لأنهم يعلمون ثمرة اقتناع القائد الجهادي، فإنه إن تحوَّل واقتنع بتقليبهم، فسوف يكون على المستوى العام والبعيد، ومن ثم كان تركيزهم عليه!

ونصيحتي لمجالس شورى الجماعات أن لا تتركوا قادة الجهاد لوحدهم مع المنافقين، فإنَّ الخطر أنهم ربما تمكنوا من قلوبهم، ودخلوا باب القبول عندهم، وربما أقنعوهم بعد محاولات بالأمر الذي يريدون، فيصبح هذا القائد أعظم دفاعًا عنهم من غيرهم، وهذه عقبة كأداء تصل لدرجة الإحراج والمفاصلة بين الجماعات الجهادية، ولا يستبعدنَّ قائد جهادي على نفسه ذلك بعد ذكر الله عن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك، وقد ذكر عنه أكثر من ذلك فقال له: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ (النساء: ١٠٥).

أيها المجاهدون: إن لم يكن عندكم استعداد لأن تتنازلوا عن تقريب فلان المتهم وفلان وفلان بحجة أنهم من عناصركم الجهادية الأولى... فلا أقل من أن تحترموا وجهة نظر إخوانكم الآخرين من الجماعات الأخرى، فلا تحضروا هؤلاء تلك الجلسات، وإخوانكم لهم كارهون، ولا تعرضوا عليهم أسرار المشاورات أو الجلسات...

أيها المجاهدون: يجب أن تقبلوا بهذا، فإنَّ كل احتياط إنما هو لمصلحة الإسلام، وعلى هذا فلتتعاملوا مع كل الأمور على أنها ليست أمورًا شخصية، إنما هو الإسلام وكفى!

وكم نتمنى - أيها الإخوة - أن تنشئوا في نفوس الجميع أمرين: (المناصحة، والمصارحة).

فبالمناصحة تتحقق طهارة المجموعة المسلمة، وتنزل عليهم الرحمة التي ذكر الله جلَّ جلاله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ

الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ (التوبة). وبالمصارحة ينكشف هؤلاء المندسون بينكم الذين لا يمكنهم العيش في جو المصارحة.

وهل كُشف نفاق عبدالله بن أبيّ للعيان إلا بالمصارحة، وذلك حين جاء "زيد بن أرقم" مصارحاً النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كما سيأتي معنا تفصيله في عهد قادم عند قول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ (المنافقون).

وهل نجى موسى عليه السلام إلا بمجيء الغيور من أقصى المدينة، ومصارحته له بتأمر آل فرعون؟ إن سر كون النصيحة تكشف المنافقين هو أنهم لا يحملونها في العادة كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٦﴾﴾ (البقرة).

وسر كون المصارحة بين الإخوة تفضح المنافقين بين الصفوف، هو أن النفاق ينبت في الظلام، ومركبه في التفريق هو إساءة ظن الأخ بأخيه، وتحميل الكلمات ما لا تحمل، واتهام النوايا ونحو ذلك، فإذا كانت ثمة مصارحة انقضت تلك الظلمة، وتبين أنها أوهام في أغلب الأحيان... وليكن العهد على هذا عهداً مغلطاً... فإنَّ الأخ الآخر، وإن كان مخطئاً، فإنه أضعف ما يكون المخطئ حين يصارح، وأقرب ما يكون من الحق حين ينصح.

الوصية السابعة: لا أدن لتقليب منافق

الناظر في وضع الصفوف الإسلامية في العراق وإرادة الأعداء إحداث خلل يلقون فيها الفتنة... يجد خبث خطط هؤلاء الأعداء وعظيم مكرهم، ودقة معرفتهم بالجماهير الجهادية مجموعة مجموعة، ودقة معرفتهم بالمجموعة الواحدة، وأفراد تلك المجموعة المؤثرين فرداً فرداً... فتراهم يتصلون بهذا الشخص دون إشعاره بأنهم هم المتصلون ليحفظ لنفسه وشرفه - أول مرة - من أن يمس بخيانة أو يتهم بها!

ويكون العرض عليه عرضاً ظاهراً خدمة الجهاد في العراق، والمحافظة على المكتسبات الجهادية، وقطف الثمرة قبل أن يطير بها الزنادقة والآخرون! وما إلى ذلك من أوهام!

لكنَّ غايتهم البعيدة هي ترك الجهاد، وهذا ما لا يُعرض ابتداءً، فعند الابتداء يكون منطقهم هو إنما هي مفاوضات لمصلحتكم! إنما هو تأمين مناطق بأيديكم! إنما هو ستر أعراضكم! إنما هو كذا وكذا! وفي مقابل كل مكاسبكم تلك - أيها المجاهدون - فليس عليكم الا أن تؤمنونا إذا مررنا في مناطقكم فقط!

فتقع تلك العروض في تلك النفوس موقع القبول، ويطيرون بها فرحًا، ويدافعون عنها دفاعًا، ويتخذونها مشروعهم في داخل تلك المجموعة، ويجمعون حولهم أفرادًا من أمثالهم من نفس المجموعة، ويكون لديهم من الإصرار ما يفاصلون مجموعتهم وقياداتهم لو اقتضى الأمر في النهاية ذلك! وبإهمال هؤلاء يكونون جيبًا داخل المجموعة قد حدث، وفكرًا نشازًا داخل فكر المجموعة الجهادية قد نشأ! هو في حقيقته يسبح ضد تيارها وضد توجهها دون ظهور في البداية، وبمجرد وصول الفكرة لقيادة المجموعة يبدأ الحوار ما بين الجماعة والمجموعة كجماعة فكرية ويتكرر الحوار معهم مرة ومرة ومرة... وفي النهاية - وكما هو المعتاد - تغض قيادة المجموعة الكبيرة الطرف عن هذه المجموعة الصغيرة، فتنمو وتنمو بمنحهم هذه الفرصة الذهبية، وبقدر ما تأكل من أفراد الجماعة الأصليين بقدر ما تنمو... ثم يتحول غض الطرف هذا إلى تنازل جزئي... فإذا ما شاع الخبر أنَّ الفصيل الجهادي الفلاني بدأ بالتنازل أو المهادنة أو ما إلى ذلك شعر الفصيل كله أنَّ سمعة المجموعة كلها في خطر، فعليها أن تجعل اختلافها هذا اختلافًا داخليًا، ويجب أن يبقى داخليًا! لنحافظ على مظهر وحدة الصف أمام المجاميع الأخرى، وعندها تتخذ موقفًا موحدًا، ألا وهو نفس موقف تلك المجموعة الصغيرة أو موقف الجيب، ليتحول هذا الفصيل إلى جيب داخلي بين الفصائل كلها... ثم يتطور الأمر أكثر ليتحول هذا الفكر النشاز إلى فكر شرعي، يكون همهم هو البحث له عن أدلة شرعية من هنا وهنا، ورد كل دليل شرعي لا يوافق هذا الفكر، ويتحول هؤلاء إلى دعاة لهذا الانحراف عن الطريق...!

ولو عاد هؤلاء إلى الأصل الذي كانوا عليه قبل التغيير لوجدوا أنهم وقعوا في أمر خطير، خطير! إذ حاكموا الشرع إلى الهوى، فقبلوا وردوا حكم الله وحكم رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالهوى!

والوصية بحسم مادة الفساد في المجموعة الجهادية عند أول ظهور هذا الفكر النشاز بالدليل أولاً
مع الحذر من محاورة الجيب كمجموعة، بل يحاورون كأفراد، ويحاور رأسهم أولاً، ثم بالعزل والفصل ثانيًا، ومصارحة الإخوان الآخرين من المجاميع الأخرى بها، فإنّ التساهل في ذلك يزيد خطره كما يزيد حجم الحية الصغيرة إذا تركت في بستان الطيور، حتى يأتيها اليوم الذي تقتل صاحب الطيور، وتتفرغ لغذائها وغذاء أبنائها بعد ذلك...

فليس العيب في أخ يستعين بأخيه في جماعة ثانية على إصلاح العيب، إنما العيب بحماية العيب والدفاع عنه...!

العيب بأن تعتبر الأخوة الناصحين شائعين وشامتين، وتعتبر المبدلين تبديلاً خاصتك الأوفياء الذين يستحقون أن تستر عيوبهم عن إخوانك، وتدرعهم بعرضك وسمعتك، وهم في حقيقة الأمر لا يهمهم إلا إنقاذ مشروعهم وفكرتهم الشاذة، ولو على حسابك وحساب تاريخك وسمعتك، ولو أدى ذلك إلى نسف جهادك...!

وإن طالت الأيام بمن لم يقتنع بهذا الذي أقول فسوف يرى مكافأة هؤلاء له...!
حيث سيكون هو أول الضحايا، والجزء من جنس العمل، إذ التاريخ يشهد بأحداث لا حصر لها من بطانات السوء التي تغذت دهرًا على سمعة القائد والأمير والخليفة، ورضعت قوتها من قوته، وسمعتها من سمعته، حتى إذا سمت وصلب عودها، وارتفع رأسها وسهمها واسمها... كان ضحيتها هو قائدها القديم!

والرجوع الحاسم اليوم بمشورة الآخرين الثقات خير من التماذي، فإنّ في التماذي إصرارًا وإضرارًا واستكبارًا...

العهد السادس: الجماعة الواحدة أو الاتحاد

قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (الأنفال).

يقول الإمام الطبري: (هذا تعريف من الله - جلّ ثناؤه - أهل الإيمان بالسيرة في حرب أعدائه من

أهل الكفر به، والأفعال التي يرجى لهم باستعمالها عند لقائهم النصرة عليهم والظفر بهم).

ويقول رحمه الله: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾، يقول: ولا تختلفوا فتفرقوا وتختلف قلوبكم فتفشلوا،

﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ ... وإنما يراد به في هذا الموضع: وتذهب قوتكم وبأسكم فتضعفوا، وَيَذْخُلُكُمْ الْوَهْنُ

والخلل، ﴿وَاصْبِرُوا﴾، يقول: اصبروا مع نبي الله صلى الله عليه وسلم عند لقاء عدوكم، ولا تنهزموا عنه

وتتركوه، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، يقول: اصبروا فإني معكم^(١).

وقال القرطبي: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، أي: قوتكم ونصركم... وقال قتادة وابن زيد: إنه لم يكن

نصر قط إلا بريح تهب فتضرب في وجوه الكفار، ومنه قوله عليه السلام: نصرت بالصبا وأهلك عاد بالبور^(٢) ^(٣).

وقال الثعالبي في تفسيره: (والجمهور على أنّ الريح هنا مستعارة)^(٤).

وقال أبو حيان: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾، والأظهر أن يكون فتفشلوا جواباً للنهي، فهو

منصوب، ولذلك عطف عليه منصوب؛ لأنه يتسبب عن التنازع الفشل، وهو الخور والجبن عن لقاء

العدو، وذهاب الدولة باستيلاء العدو^(٥).

(١) الجامع لأحكام القرآن ٥٧٥/١٣.

(٢) أخرجه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٢٠٤٢)، وأحمد ٢٢٨/١، والنسائي في "الكبرى" (١١٥٥٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٤/٨-٢٥.

(٤) الجواهر الحسان للثعالبي ١٤٢/٣.

(٥) البحر المحيط ٥-٣/٤.

وما أحسن ما ذكره البقاعي: ﴿وَلَا تَنْزِعُوا﴾، بأن يريد كل واحد نزع ما لصاحبه من رأي وغيره وإثبات ما له، وأشار إلى عظيم ضرر التنازع ببيان ثمرته المرة فقال: ﴿فَنَفْشَلُوا﴾، أي: تضعفوا. قال في القاموس: فشل كفرح، فهو فشل، كسل وضعف وتراخى وجبن - انتهى. والمادة راجعة إلى الفيشلة وهي الحشفة، ومن لازمها الرخاوة وينشأ عن الرخاوة الجبن مع الصلف والخفة والطيش.

ولما كان الفشل ربما كان معه الظفر لفشل في العدو أكثر منه أو غير ذلك، عطف ما يلزمه غالباً بالواو دون الفاء فقال: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، أي: غلبتكم وقوتكم، وأصله أنَّ الريح إذا كانت في الحرب من جهة صف كانت في وجوه أعدائهم فمنعتهم بما يريدون فخذلوا، فصارت كأنها قوة من أتت من عنده، فصارت يكنى بها عنها، ثم ختم هذه الأسباب بالجامع لشمليها الناظم لمقاصد أهلها فقال: ﴿وَأَصْبِرُوا﴾، أي: على ما يكون من تلك المشاق، فإنكم إن تكونوا تألمون فإنَّ أعداءكم كذلك، وأنتم ترجون من الله ما لا يرجون، ثم علَّله بما يكون النصر في الحقيقة فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾، أي: المحيط بصفات الكمال ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، أي: لأنهم لا يصبرون إلاَّ اعتماداً عليه، ومن كان معه عزٌّ، وهذه الجملة جمع فيها - كما قال الإمام شمس الدين محمد ابن قيم الجوزية في آخر كتاب الفروسية المحمدية - تدبير الحروب أحسن جمع على أتم وجه، فأمر فيها بخمسة أشياء ما اجتمعت قط في فئة إلا انتصرت، وإن قلَّت في جنب عدوها، وخامسها ملاك ذلك وقوامه وأساسه وهو الصبر، فعلى هذه الدعائم الخمس تبنى قبة النصر، ومتى زالت، أو بعضها، زال من النصر بحسبه، وإذا اجتمعت قوى بعضها بعضاً وصار لها أثر عظيم، لما اجتمعت في الصحابة رضي الله عنهم لم تقم لهم أمة من الأمم، ففتحوا البلاد شرقاً وغرباً، ودانت لهم العباد سلماً وحرّاً، ولما تفرقت فيمن بعدهم وضعفت آل الأمر قليلاً قليلاً إلى ما ترى، فلا قوة إلا بالله، والجامع لذلك كله طاعة الله ورسوله، فإنها موجبة لتأييد المطيع بقوة من هو في طاعته، وذلك سرُّ قول أبي الدرداء رضي الله عنه، الذي رواه البخاري في باب عمل صالح قبل القتال^(١): إنما تقاتلون الناس بأعمالكم...^(٢).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه تعليقاً بصيغة الجزم ٢٤/٦. وانظر "تغليق التعليق" ٤٣١/٣.

(٢) نظم الدرر ٢٢٥/٣.

ورحم الله الطاهر بن عاشور، فقد قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا أَنْفُسَكُمْ فِي دَعْوَاكُمْ﴾

﴿وَأَمَّا النَّهْيُ عَنِ التَّنَازُعِ فَهُوَ يَقْتَضِي الْأَمْرَ بِتَحْصِيلِ أَسْبَابِ ذَلِكَ بِالتَّفَاهُمِ وَالتَّشَاوُرِ، وَمِرَاجَعَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، حَتَّى يَصْدُرُوا عَنْ رَأْيٍ وَاحِدٍ، فَإِنْ تَنَازَعُوا فِي شَيْءٍ رَجَعُوا إِلَى أَمْرَائِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٨٣)، ﴿فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (النساء: ٥٩)، والنهي عن التنازع أعمُّ من الأمر بالطاعة لولاة الأمور؛ لأنهم إذا نَحَوْا عن التنازع بينهم، فالتنازع مع ولي الأمر أَوْلَى بالنهي.

ولمّا كان التنازع من شأنه أن ينشأ عن اختلاف الآراء، وهو أمر مرتكز في الفطرة، بسَطَ القرآن القول فيه ببيان سيِّئ آثاره، فجاء بالتفريع بالفاء في قوله: ﴿فَنَفْسُكُمُوتُ وَتَذْهَبُ رِيحُكُمْ﴾. فحدّثهم أمرين معلومًا سوء مغبتهما، وهما: الفشل، وذهاب الريح.

والفشل: انخراط القوة، وقد تقدّم أنّما عند قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادَكُمْ كَثِيرًا لَفَشلْتُمْ﴾ (الأنفال: ٤٣)، وهو هنا مرادٌ به حقيقة الفشل في خصوص القتال ومدافعة العدو، ويصحُّ أن يكون تمثيلًا لحال المتقاعس عن القتال بحال من خارت قوته وفشلت أعضاؤه في انعدام إقدامه على العمل. وإنّما كان التنازع مفضيًا إلى الفشل؛ لأنه يثير التخاصم، ويزيل التعاون بين القوم، ويحدث فيهم أن يتربّص بعضهم ببعض الدوائر، فيحدث في نفوسهم الاشتغال باتّقاء بعضهم بعضًا، وتوقع عدم إلقاء النصير عند مآزق القتال، فيصرف الأمة عن التوجّه إلى شغل واحد فيما فيه نفع جميعهم، ويصرف الجيش عن الإقدام على أعدائهم، فيتمكّن منهم العدو، كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَغَصَبَتْكُمْ﴾ (آل عمران: ١٥٢).

والريح حقيقةً تحرُّك الهواء وتوجّهه، واستعيرت هنا للغلبة، وأحسب أنّ وجه الشبه في هذه الاستعارة هو أنّ الريح لا يمانع جريها ولا عملها شيء، فشبه بها الغلب والحكم^(١).

ويقول صاحب الظلال عند هذه الآية: (فهذه هي عوامل النصر الحقيقية، الثبات عند لقاء العدو، والاتصال بالله بالذكر، والطاعة لله والرسول، وتجنب النزاع والشقاق، والصبر على تكاليف المعركة، والحذر من البطر والرئاء والبغي)^(١).

يا أصحاب عصائب الجهاد: لكم في هذه الآيات فهم مخصوص، وإن كان الخطاب فيها ليس لكم على وجه الخصوص... أريد أن أختصر لكم المسألة، فلتصدقوا مع الله الذي لا تخفى عليه خافية، الذي ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾، ولتتحملوا بعد هذه الإجابة تكاليفها في الدنيا والآخرة، ولتكن إجاباتكم مختصرة كما الأسئلة مختصرة:

أيها المجاهدون: من يغضب لاختلافاتكم؟ أليس هو الله جلّ جلاله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم؟

من يفرح بخلافاتكم؟ أليس هو الشيطان وأوليأؤه؟

فلم تغضبون الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وتفرحون الشيطان وأوليأؤه؟! وبعد هذا، من الضحية لاختلافاتكم؟ أليس هو الإسلام وبلاد الإسلام. أيمن للعدو أن ينتصر وأنتم موحدون على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم؟! فما جزاء من يقدّم الإسلام وبلاد الإسلام قرباناً للصليب في هذا الوقت العصيب باختلافكم وأنتم تعلمون؟!

هل الحقيقة أنّ اختلافاتكم لأجل الإسلام وحده، وأنه لا نصيب لأشخاصكم ولا لأسمائكم ولا لشعاراتكم؟!

فهل الإسلام مانع لكم من التوحد الفكري، والعلمي، والشرعي، وإن لم تتوحدوا بالاندماج؟! هل ترون الإسلام كان سيقوم لو كانت قابلية الصحابة - رضي الله عنهم - كقابليتنا (الإسفنجية) لامتصاص الفتن من رطوبة الهواء، أو أخبار الفضاء؟!

لقد بلغ الأمر بركب النفاق الأول أن اتهموا النبي صلى الله عليه وآله وسلم في عدله، وفي عرضه، وفي قيادته، وفي صحبه، واتهموه بتهم كثيرة، وكان حقهم القتل، ومع هذا ترك النبي صلى الله عليه وآله وسلم

وسلم قتلهم محافظة على سمعة الصف ووحدته وقيادته وهو يقول صلى الله عليه وآله وسلم: (لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه)^(١).

وفي غزوة بني المصطلق التي وقعت سنة ست، حدثت حادثة كانت كافية لتعصف بالجيش والأمة، يقول ابن إسحاق: فبينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك الماء - بعد الغزوة - وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له: جهجاه بن مسعود، يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسان ابن وبر الجهني حليف بني عوف ابن الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار. وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين. فغضب عبدالله بن أبي ابن سلول، وعنده رهط من قومه، فيهم زيد بن أرقم غلام حدث، فقال: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أحدنا وجلايب قريش إلا كما قال الأول: سَمَنَ كلبك يأكلك! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ. ثم أقبل على مَنْ حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو مسكتهم عنهم بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم. فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك عند فراغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوه، فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مر به عباد بن بشر فليقتله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا، ولكن أذن بالرحيل. وذلك في ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها. فارتحل الناس، وقد مشى عبدالله بن أبي ابن سلول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه - فحلف بالله ما قلت ما قال، ولا تكلمت به! وكان في قومه شريقاً عظيماً، فقال من حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل؟ حدباً على ابن أبي ابن سلول، ودفعاً عنه. قال ابن إسحاق فلما استقل رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار لقيه أسيد بن حضير، فحيَّاه بتحية النبوة وسلَّم عليه، ثم قال: يا نبي الله، والله لقد رحت في ساعة منكراً ما كنت تروح في مثلها؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟). قال: وأيّ صاحب يا رسول الله؟ قال: (عبد الله بن أبي). قال: وما قال؟ قال: (زعم أنه

(١) أخرجه البخاري (٣٥١٨)، ومسلم (٦٦٧٥)، وأحمد ٣/٣٣٨، والترمذي (٣٣١٥)، والنسائي في "الكبرى" (٨٨١٢).

إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزُّ منها الأذل؟). قال: فأنت يا رسول الله والله لتخرجنه منها إن شئت، هو والله الدليل وأنت العزيز. ثم قال: يا رسول الله ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنَّ قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته مُلكاً! ثم مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصَدَّرَ يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض فوقعوا نياماً، وإنما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبدالله بن أبيّ. قال ابن إسحاق: ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين، في ابن أبيّ ومن كان على مثل أمره. فلما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذن زيد بن ارقم، ثم قال: هذا الذي أوفى الله بأذنه... وبلغ عبدالله بن عبدالله بن أبيّ الذي كان من أمر أبيه.

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، أنَّ عبدالله أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بد فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرَّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبدالله بن أبيّ يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا)^(١). انتهى.

وما أعجب حرص عبدالله بن عبدالله بن أبيّ وإشفاقه أن يتشقق الصف المسلم، فيذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويطلب منه طلبه العجيب العظيم.

(١) البداية والنهاية ١٥٨/٤، وانظر سيرة ابن هشام: ٣٢١/٣.

الوصايا

الوصية الأولى: أَلَّا نُعْظَمَ الْخِلَافَ- إِنْ لَمْ يَكُنْ عَظِيمًا-

لا ينبغي أن نُعْظَمَ شأن كل اختلاف حتى لكأنه سابقة لم يسبقنا إليها أحد.

لقد اختلف الخضر وموسى عليهما السلام، واختلف سليمان وداود عليهما السلام: ﴿وَدَاوُدَ

وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ تَفَشَّتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ

وَكُلًّا ءَاتَيْنَاهُمْ حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ (الأنبياء-)

واختلفا عليهما السلام في شأن المرأتين اللتين اختصمتا في الابن، واختلف آدم وموسى عليهما السلام.

ولم يكن هذا الخلاف موجباً للفرقة والبغضاء.

واختلفت ملائكة الرحمة وملائكة العذاب في شأن قاتل المئة حين مات بين القريتين^(١).

ونقل الحافظ في "الفتح" عن القرطبي قوله: (من تأمل ما دار بين أبي بكر وعلي من المعاتبة ومن

الاعتذار، وما تضمن ذلك من الإنصاف عرف أنَّ بعضهم كان يعترف بفضل الآخر، وأنَّ قلوبهم كانت

متفقة على الاحترام والمحبة، وإن كان الطبع البشري قد يغلب أحياناً لكنَّ الديانة ترد ذلك، والله

الموفق)^(٢).

وعن عبد الرحمن بن شماس قال: أتيت عائشة رضي الله عنها أسأله عن شيء، فقالت: ممن

أنت؟ فقلت: رجل من أهل مصر. فقالت: كيف كان صاحبكم لكم في غزاتكم هذه؟ فقال: ما نقمنا

منه شيئاً، إن كان ليموت للرجل منا البعير فيعطيه البعير، والعبد فيعطيه العبد، ويحتاج إلى النفقة فيعطيه

النفقة. فقالت: أما إنه لا يمنعني الذي فعل في محمد بن أبي بكر أخي أن أخبرك ما سمعت من رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم، يقول في بيتي هذا: (اللهم من ولي من أمري شيئاً فشق عليهم فاشقق

عليه، ومن ولي من أمري شيئاً فرفق بهم فافرق به)^(٣).

(١) ينظر: "إيثار الحق على الخلق، لابن الوزير" (ص ١١٩).

(٢) فتح الباري ٤٩٥/٧.

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٢٦)، وأحمد ٩٣/٦ و٢٥٧، والنسائي في "الكبرى" (٨٨٧٣)، وابن حبان (٥٥٣).

وعن هشام بن عروة عن أبيه قال: ذهبت أسبُ حسناً عند عائشة رضي الله عنه فقالت: (لا تسبه؛ فإنه كان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) ^(١).

وها هو ابن عباس رضي الله عنه يثني على ابن الزبير رغم ما كان بينهما.
قال ابن أبي مليكة: وكان بينهما شيء، فغدوت على ابن عباس فقلت: أتريد أن تقاتل ابن الزبير فتحل حرم الله؟! فقال: معاذ الله! إنَّ الله كتب ابن الزبير وبني أمية مُحَلِّين، وإني والله لا أحله أبداً، قال: قال الناس: بايع لابن الزبير، فقلت: وأين بهذا الأمر عنه؟ أما أبوه فحواري النبي صلى الله عليه وسلم، يريد الزبير، وأما جده فصاحب الغار، يريد أبا بكر، وأمه فذات النطاق، يريد أسماء، وأما خالته فأُم المؤمنين، يريد عائشة، وأما عمته فزوج النبي صلى الله عليه وسلم، يريد خديجة، وأما عمة النبي صلى الله عليه وسلم فجدة، يريد صفية، ثم عفيف في الإسلام، قارئ للقرآن ^(٢).

وفي حديث الإفك تعتذر عائشة رضي الله عنها عن سعد بن عبادَة فتقول: (فقام سعد بن عبادَة وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية) ^(٣). وقد خالف ابن مسعود رضي الله عنه عمر بن الخطاب في مسائل بلغت المئة - كما ذكر ابن القيم في "إعلام الموقعين" ومع ذلك فحين أتى ابن مسعود اثنان أحدهما قرأ على عمر، والآخر قرأ على غيره، فقال الذي قرأ على عمر: أَقْرَأْنِيهَا عمر بن الخطاب، فجهش ابن مسعود بالبكاء حتى بلَّ الحصى بدموعه، وقال: اقرأ كما أقرأك عمر؛ فإنه كان للإسلام حصناً حصيناً، يدخل الناس فيه ولا يخرجون منه، فلما أصيب عمر انثلم الحصن. وقال عمر رضي الله عنه عن ابن مسعود قولته المشهورة: (كُنَيْفٌ مُلِيٌّ عَلَمًا). فالخلاف واقع واقع، وسيقع ويتكرر... ولكن الخلاف لا ينبغي أن يولَّد خلافاً آخر، ويوسَّع الخلاف الصغير إلى خلاف كبير، أو يمد في عمر الخلاف أكثر، فإنَّ الخلاف إن لم يقاوم زاد ونما كما ينمو العشب الضار بين الزرع النافع، ولا يوجد علاج للخلاف مثل الجماعة.

(١) أخرجه البخاري (٤١٤٥)، ومسلم (٦٥٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٦٥).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٦١)، وأحمد ١٩٤/٤، وابن حبان (٧٠٩٩).

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ الله يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تَشْرَكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ)^(١).

وعن الحارث الأشعري رضي الله عنه، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إِنَّ الله أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكْرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا).... الحديث وفيه: قال النبي ﷺ: (وَأَنَا أَمَرُكُمْ بِخَمْسٍ، اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَ: السَّمْعُ، وَالطَّاعَةُ، وَالْجِهَادُ، وَالْهَجْرَةُ، وَالْجَمَاعَةُ؛ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ، إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ)^(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: خطبنا عمر بالجابية فقال: يا أيها الناس! إني قمت فيكم كمقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فينا فقال: (أَوْصِيكُمْ بِأَصْحَابِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ وَلَا يُسْتَحْلَفُ، وَيَشْهَدُ الشَّاهِدُ وَلَا يُسْتَشْهَدُ، إِلَّا لَا يَخْلُونَ رَجُلًا بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ، عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفِرْقَةَ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الْاِثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بِحُبُوحَةِ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزِمِ الْجَمَاعَةَ، مِنْ سِرِّهِ حَسَنَتِهِ وَسَاءَتِهِ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ)^(٣).

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (الْبُرْكََةُ فِي ثَلَاثَةٍ: فِي الْجَمَاعَةِ، وَالشَّرِيدِ، وَالسَّحُورِ)^(٤).

وقال البغوي: (بَعَثَ اللَّهُ الْأَنْبِيَاءَ كُلَّهُمْ بِإِقَامَةِ الدِّينِ وَالْأَلْفَةِ وَالْجَمَاعَةِ وَتَرَكَ الْفِرْقَةَ وَالْمُخَالَفَةَ)^(٥).

وقال الطحاوي: (وَنَرَى الْجَمَاعَةَ حَقًّا وَصَوَابًا، وَالْفِرْقَةَ زَيْغًا وَعَذَابًا)^(٦).

(١) أخرجه مسلم (٤٥٠١)، ومالك (٦١٢)، وأحمد ٣٢٧/٢، والبخاري في "الأدب المفرد" (٤٤٢)، وابن حبان (٣٣٨٨).

(٢) أخرجه أحمد ١٣٠/٤، والترمذي (٢٨٦٣)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، والنسائي في "الكبرى" (٨٨١٥)، وابن خزيمة (٤٨٣)، وابن حبان (٦٢٣٣). وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أحمد ١٨/١، والترمذي (٢١٦٥)، والنسائي في "الكبرى" (٩١٨١)، وابن حبان (٧٢٥٤)، وصححه الألباني وشعيب.

(٤) أخرجه الطبراني في "الكبير" ٢٥١/٦، والبيهقي في "الشعب" ٦٨/٦. وقال الألباني: حسن لغيره.

(٥) معالم التنزيل (١٢٢/٤).

(٦) متن العقيدة الطحاوية.

وقال النووي عن حديث: (إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا ...) : (وأما قوله ﷺ: "ولا تفرقوا..."

فهو أمر بلزوم جماعة المسلمين، وتآلف بعضهم ببعض، وهذه إحدى قواعد الإسلام^(١).

ومع كل هذا فيبقى ما بين أفراد الجماعة الواحدة خلافات، فكيف والعصائب متعددة، ولذا وجب أن يشيع الأدب الإسلامي بين القادة والأفراد عند الاختلاف، حتى لكأنَّ الجماعات جماعة واحدة، وكأنَّ العصائب عصبه واحدة، ما لم يكن الخلاف في مسائل كبيرة، وهذا ما يقدره أهل العلم.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (يا أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة؛ فإنهما السبيل في

الأصل إلى حبلى الله الذي أمر به، وإنَّ ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة).^(٢)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وهذا التفريق الذي حصل من الأمة علمائها

ومشايجها، وأمرائها وكبرائها هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها، وذلك بتركهم العمل بطاعة

الله ورسوله كما قال تعالى ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ أَخَذْنَا مِنْهُمُ ثَمَنًا فَتَنَّاوْا حَظًّا

مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا

كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ (المائدة). فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به وقعت بينهم

العداوة والبغضاء، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا؛ فإنَّ الجماعة رحمة، والفرقة عذاب^(٣).

الوصية الثانية: تقوى الله في السكوت أحياناً

يا أصحاب الجهاد: لو كانت خصوماتكم شخصية مجردة، أو خلافاتكم فقهية علمية... أثرها

لا يتعدى أشخاصكم ومن حولكم لربما كان لكم في ذلك مساع، أمّا وإنَّ اختلافكم وخصوماتكم في

اجتهاداتكم، مما فيه مهلكة الأمة، ونكبة الإسلام، على كل المستويات كعلو الصليب على التوحيد،

وتغيير المناهج التعليمية، وتغيير حياة المساجد وأمانتها، وفتح أبواب الخروج عن الإسلام، وشيوع

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١١/١٢.

(٢) أخرجه اللالكائي في "شرح أصول اعتقاد أهل السنة" (١٥٨-١٥٩)، والآجري في "الشرعية" (١٣).

(٣) مجموع الفتاوى ٤٢١/٣.

الفواحش بين المسلمين... وما إلى ذلك من كوارث لا يعلمها إلا الله، ولا يعرف وقت انتهائها إلا الله، فإنَّ خطورة الاختلاف تتعدى بتعدي تبعاته، وامتداد آثاره...

فمن كان منكم متحملاً كل ذلك وغير ذلك من أوزار كاملة يوم القيامة فلا يتنازل عن خلاف! ولا يؤجل خلافاً! ولا يتنازل عن حق شخصي! وليشأ لنفسه ومجموعته! وليشهر بإخوانه أنى ذهب! ولينتقص منهم في كل مكان، فيظهر نقصهم وعيبهم ولو بالسكوت وعدم الدفاع عنهم إذا ذكروا! حتى لا يكاد الأخ يذهب إلى مجلس إلا ويقرأ في وجوه الحاضرين أنَّ عيبك قد سبقك، فإن بررت فقد كذبت، وإن صدقت عيبك فقد أقررت!

فيالورع هذا الساكت! كأنَّ الله لا يعلم أنه أراد أن يجمع بين سيئتين، سيئة إشاعة عيب الأخ وسيئة إشاعة تزكية النفس بإظهار الورع وأنه أكبر من أن يتكلم في إخوانه! وهذا الأسلوب أصبح مكشوفاً، بل ممجوجاً وفاضحاً لأصحابه، ومصير صاحبه مهما كان لحناً في حجته، أو لساناً في كلامه، هو السقوط من الأعين الطاهرة كما يسقط القذى والأذى منها عند الطهارة، وما يصنعه الله به في الآخرة أعظم ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص).

الوصية الثالثة: فقه إطفاء الفتنة

الملحظ الذي يلحظه المنافقون لإثارة الفتنة لا يلحظه المؤمنون، وذلك لأنَّ المؤمنين يعيشون الأخوة حقيقة، فلا يفكرون بالخصومة، ويعيشون المحبة في الله، ولا يفكرون بالعداوة بينهم وهكذا، بينما هذا هو همُّ المنافقين، وهو مطلبهم وعنه يبحثون، ولذلك تجدهم يدقون على مثيرات الاختصاص في اللحظة الحرجة، وفي موضع المقتل.

تأمل الحادثة التي مرت معنا، فمن ذا الذي كان يتخيل أنَّ ثمة بقايا جاهلية في نفوس بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم...؟! وأين تلك البقايا في غمرة الأخوة لله، والخروج للجهاد معاً في سبيل الله...؟!

لقد استخرجها ابن سلول من حيث لا يحتسب الصحابة أبداً، أخرجها من اختلاف غلامين، غلام لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وليس هو عمر نفسه، وغلام آخر من حلفاء الخزرج وليس هو من الخزرج.

أرأيت كيف استخرج رأس النفاق نقطة الفرقة، ودق عليها دقاً عنيقاً في اللحظة المناسبة؟ يقول الدكتور عادل بن علي الشدي: (وهذا الكلام الذي صدر عن عبدالله بن أبي لا يمكن أن يكون وليد اللحظة وعفو الخاطر، بل إنه كلام قد أعدّه بعناية، صوّر فيه الموقف كاملاً من وجهة نظر المنافقين، ووضع فيه أبرز اقتراحاتهم لإذلال المسلمين، وتحويلهم عن المدينة. ثم إنّ المتأمل في هذا الكلام يلحظ نبرة التفريق واضحة جداً، فإنه لا يعد المهاجرين والأنصار شيئاً واحداً، يجمعهم دين واحد ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، بل يعتبر المهاجرين عنصراً دخيلاً على أهل المدينة من الأنصار كما في قوله: (أو قد فعلوها)، و(نافرونا وكاثرونا في بلادنا)، و(أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم)، و(لو أمسكنم عنهم)، و(لتحولوا إلى غير داركم) و(قللتم وكثروا)، و(لا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا).

وتظهر نبرة الكفر جلية واضحة بقوله: (ثم لم ترضوا حتى جعلتم أنفسكم غرضاً للمنايا فقتلتم دونه).

فهذا كلام من لا يؤمن بالله ولا برسوله صلى الله عليه وآله وسلم وليس بكلام مسلم أبداً. وقد كادت الفتنة العظيمة أن تقع بعد تقرير المنافقين عليها، وتلقف العامة لها، لولا أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن التصرف يومذاك، فأمر من يُكلّم المضروب فتنازل عن حقه، ثم أذن بالرحيل في ساعة لم يكن يترحل فيها، ذلك لما شاع الخبر في الناس، ولم يكن لهم من حديث غيره، فسار النبي صلى الله عليه وسلم يومذاك وليلته وصدر اليوم التالي حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نياماً، وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث ابن سلول^(١). وهنا نلحظ أموراً:

(١) دراسة قرآنية في النفاق وأثره في حياة الأمة د. عادل الشدي.

الأول: أنَّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد أطفأ الفتنة بنفسه، مستخدمًا كل المؤثرات من اعتلاء المنبر، والكلام، ورفع الصوت، والإشارة، والاستعانة بآخرين... ولو تركهم لربما عصفت بالإسلام والمسلمين.

يقول الدكتور عادل بن علي الشدي: وقد يظن بعض السذج والبسطاء أنَّ هذا الإضرار بالمسلمين ومحاولة تفريق جماعتهم لا يعدو كونه معصية من المعاصي، وأنه لا يؤثر على اعتقاد بوجه من الوجوه، وهذا ليس بصحيح، فإضرار المسلمين، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: [يزيد على تغيير الاعتقاد، ويفعله من يظن سلامة الاعتقاد وهو كاذب عند الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بهذه الدعوة والظن، ومعلوم أنَّ المفسدة في هذا أعظم من المفسدة من مجرد تغيير الاعتقاد من هذين الوجهين: من جهة كونه إضرارًا زائدًا، ومن جهة كونه قد يظن أو يقال: أنَّ الاعتقاد قد يكون سالمًا معه، فيصدر عن لا يريد الانتقال من دين إلى دين، ويكون فساد أعظم من فساد الانتقال، إذ الانتقال قد عُلم أنه كفر، فنزع عنه ما نزع عن الكفر، وهذا قد يظن أنه ليس بكفر، إلا إذا صدر استحلالًا، بل هو معصية، وهو من أعظم أنواع الكفر]^(١). اهـ.^(٢)

الثاني: مع أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم تمكن من حل المشكلة في لحظتها إلا أنه قطع ذيولها من النفوس بأمر عسكري عملي فوري، لا يبقى للحديث فيها مجالاً أبداً، إنه: الرحيل الليلي الفوري! فكم من المشاكل تحل بتدخل المصلحين، وبعد هنيهة من الاتفاق تعود ثانية، وإذا ما عادت، عادت ناسفة جارفة لا تُبقي ولا تذر، وأعادت الأمور أسوأ مما كانت، فلذا لزم المصلحين تميم الحلول الإصلاحية النظرية، بحلول عملية حاسمة...

الثالث: كل جملة قالها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذا المقام، وكل إشارة، وكل سكتة حوت علماً غزيراً في الإصلاح، وليس هذا مجال الإفاضة فيه، ولكن أودُّ أن الفت ذهن القارئ إلى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)^(٣). وهذا هو النظر في المآل.

(١) الصارم المسلول (ص ٣٧٧).

(٢) دراسة قرآنية د. عادل الشدي.

(٣) أخرجه البخاري (١٢١)، ومسلم (١٣٥)، وأحمد ٣٥٨/٤، وابن ماجه (٣٩٤٢)، والنسائي ١٢٧/٧.

فנקطة الضعف المهلكة أثناء الخصومة هي عدم نظر المتخاصمين أبعد من حدود الخصومة، وانعدام الرؤية إلا عن أشخاصهم، لكن بهذه الكلمة حقق النبي صلى الله عليه وآله وسلم بُعد النظرة خارج الخصومة، وتعدي الرؤية عن مجال النفس... فالقضية هنا تافهة بحيث لا تستحق الاختلاف لأجلها، إنهما غلامان مختلفا، لكن الصعوبة فيما إذا تعدّى الخلاف إليكم أنتم، فترجعون كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض.

والصعوبة أن يتبنّى كل فريق قضية الخلاف التافهة فيجعلها قضيته وموضوعه الذي يقاتل عليه الناس، حتى لو كانوا إخوته! (يضرب بعضكم رقاب بعض).

والوصية هنا هو النظر إلى تفاهة سبب الخلاف الأساس بينكم - أيها المجاهدون - كلما ثار اختلاف...

والنظر إلى عاقبة هذا الاختلاف، وأنّ ضرره عائد على الدين...

فأتفه شيء يدمر أعظم شيء، فالحكيم هو من ينظر لحظة عنفوان الانفعال لعاقبة الأمور، ويتخذ القرار على أساس العواقب، وما أدق قول جثامة بن قيس يصف عاقلاً :

بصير بأعقاب الأمور كأنما تخاطبه في كل أمر عواقبه

ولغيره في المعنى:

بصير بأعقاب الأمور كأنما يرى بصواب الرأي ما هو واقع

يتبعه الجزء الرابع إن شاء الله تعالى...